نبذة عن علاقة الجزائر بهولندا خلال القرن السابع عشر

أ/ محمد جلال

قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2

- **مقدمة :**

تبنى العلاقة بين الدول على أساس إما الإنتماء العقائدي، اللغوي أو الحضاري كما تبنى على أساس المصلحة مثلا التجارة، التعاون... ولما تزول المصلحة قد تتحوّل العلاقة إلى سوء تفاهم وأحيانا إلى صراع وصدام، والعلاقة بين الجزائر وهولندا (التي تقع في شمال أوروبا) لم تخرج عن هذا المألوف، إلا أن ميزاتها يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- أن هولندا كانت دولة فتية تدخل البحر المتوسط، وهي التي أعلنت إستقلالها عن إسبانيا سنة 1581، بدأت تبحث عن حلفاء لها ضد إسبانيا، فوجدت ذلك في الدولة العثمانية وفي الجزائر.

2- بلغ عدد المعهدات الموّقعة بين الجزائر وهولندا إثني عشر معاهدة بين سنوات 1612 إلى 1816...

3- تمحورت المعاهات الموّقعة بين الجزائر وهولندا حول السلم والتجارة، وقد اعطت هذه العلاقة نكهة خاصة نظرا للعلاقة المميزة كذلك بين الدولة العثمانية وهولندا التي ابقتها إلى غاية 1916، عندما ألغت الدولة العثمانية كل المعاهدات أثناء الحرب العالمية الأولى.

أما فيما يخص طبيعة العلاقة بين الدولتين خلال القرن السابع عشر، فهي تمثل جس النبض، ما دامت هولندا قد حققت إستقلالها عن إسبانيا في نهاية القرن السادس عشر وبدأت تتطلع إلى توسيع أفاقها إلى حدود البحر المتوسط الذي كانت تتصارع من أجل الهيمنة عليه كل من الجزائر وإسبانيا خاصة، وماكانت حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا إلا دليلا على ذلك.

وبما أنّ المعاهدات الموّقعة بين الجزائر وهولندا كانت تتمحور حول السلم والتجارة، أو بالأحرى تحقيق السلم من أجل تأمين التجارة، فهل كانت لدى هولندا القوة والعتاد الكافيتان لتحقيق ذلك ؟ مادامت تنتقل من أوروبا شمالا إلى البحر المتوسط جنوبا. مع العلم أنّ هذا البحر كان ممرا استرتيجيا تجوبه مختلف السفن لنقل البضائع والسلع بين الشرق والغرب. ويقتضي ذلك وجود جيش يؤمن هذه السفن حتى لا تكون عرضة لأي هجوم كان.

- الجيش الهولندي :

كان الجيش الهولندي سنة 1601، منظما تحت قيادة ستاثوادر[1] وعدده كان لايقل عن 20 الف رجلا، ومنهم انجليز، فرنسيين، المان وغيرهم من الأوروبيين.... وكان هؤلاء، يكوّنون عدادا كبيرا من الفرقة وهم منظمون على شكل كتائب وفيالف من جنسية واحدة، يقودهم ضابط منهم.

استعملت هولندا طريقتين لتنظيم الجيش، الأولى متعلقة بتنجيد المتطوعين من السكان الأصليين في المنطقة (شمال أوروبا)، والثانية متعلقة بكراء الكتائب الأجنبية من مختلف الدول" الأجنبية" من مختلف الدول الأوروبية، غير أن الطريقة الثانية هي التي كانت تغطي أكثر حاجيات البلاد في الميدان العسكرى.

هكذا ومنذ سنة 1600 الى غاية الغزو الفرنسي لهولندا سنة 1672، فان الحروب التي خاضتها هولندا وقعت معظمها في المناطق الحدودية للدولة، ومن

هنا احتفظت هولندا بسلم نسبي (هش) في المنطقة الداخلية على غرار بعض الدول الأوروبية الأخرى[2].

وبعد الهدنة التى وقعت بين اسبانيا وهولندا سنة 1609، تم فصل خمسة عشرة ألف جندى وانخفض بذلك عدد الكتائب الى خمسين فقط.

اتضحت النتائج الاجتماعية المنجرة عن هذه الاجراءات وأهمها انتشار البطالة، وقلة فرص العمل، خاصة بعد إبرام صلح وستفاليا (westphalie)[3]، حيث طلبت الولايات الهولندية أن يصل عدد الجنود المفصولين من الخدمة العسكري الى ثلاثة أرباع (4/3) من العدد الكلي للجيش.

ويرجع سبب تقلص عدد أفراد الجيش بالدرجة الأولى، الى تكاليفه المالية الباهضة، لذلك فكرت الولايات الهولندية في ضرورة تكوين أسطولا حربيا، يجمع بين مختلف الوحدات لكي يساهم في نجاح التجارة بقسط أوفر وتطويرها. في الوقت الذي كان جنود الجيش الهولندي منهمكون بضياع حقوقهم، وهم يطالبون بها...، كان الضباط يتمتعون بامتيازات رغم اعتبارهم خداما عاديين للسلطة المدينة. الكثير منهم ينتمون الى النبلاء البرتستانتيين للدول المجاورة . ولقد اثبتت سجلات الجيش أمية البعض من هؤلاء الضباط ومنهم حتى العاجز عن كتابة إسمه مورس دوناصور (Maurice de Nassau)[4]، هو الذي أسس أكادمية عسكرية اين وجد مهندسون بارزون أمثال ستفن (Steven)[5]، الذين كانوا يعلمون فن التحصين والاستراتيجية الحربية للضباط، الذين يأتون من كل نواحي أوروبا لمتابعة الدروس في هذه الأكادمية العسكرية.

هذا وقد اشتهرت هولندا، رغم حداثة إتصالها بالبحر المتوسط، بسلاح المدفعية التي تعتبر أولى مدفعية في أوربا، تأسست هذه المدرسة العسكرية في مدينة بريدة (Breda)[6].

- الأسطول الهولندي :

قدر كولبير (Colbert) رئيس وزراء فرنسا في عهد الملك "لويس الرابع عشر" أنّ الأسطول الهولندي كان يتكون من 15 الى 16 ألف سفينة، أي ما يقارب نسبة 75% من الأسطول الأوروبي ككل سنة 1665. إلا أن هذا الرقم مبالغ فيه، حيث تبيّن أنّه في سنة 1670 لم يكن الأسطول الهولندي يضم إلا 2.400 سفينة.

كانت هولندا في نهاية القرن السادس عشر، تملك السفن التي تتراوح حمولتها مابين 80 الى 120 طنه[7]، إلا أنها وصلت الى بناء السفن التي وصلت حمولتها الى 400 طنه. وتمكنت بعد سنة 1600 من صنع في حالات خاصة، السفن التي تصل حمولتها الى ألف طنه، وهذا النوع من السفن وجه خصيصا الى التجارة في الهند، وأدى التحسين التقني الى الرفع من جودة هذه السفن في السنوات التي تلت الإختراع.

انتشرت أنواع جديدة من السفن سنة 1590، منها السفينة المسماة بالعتادية (Flùte)[8]، استعملت هذه السفينة في البحار الأوروبية فقط، أثرت كثيرا على تطوير الإقتصاد الهولندي،و قد ظهرت فيما بعد سفن ذات كواثل مسطحة وجهت نحو المناطق البعيدة[9].

هكذا استعملت هولندا سفن تتماشى وتناسب الطرق البحرية التي تتخذها هذه، فكانت السفن مخصصة لنقل البضائع الثقيلة والخفيفة منها، أو سفن تستعمل للغزو البحري وللمركب، ففي بداية القرن 16 كانت الولايات الهولندية مندهشة بالسفن الاسبانية فأبت الا أن تصنع مثلها لكن هذه لم تصلح كثيرا في المحيط وبالتالي تم تركها.

ومما تجدر ملاحظته أن البحرية الهولندية، وكما وقع للجيش، لم تكن بحرية رسمية وإنما كانت تستعمل حسب ظروف الحرب أو السلم، وهو ما يؤكد استعمال أنواع عديدة ومتعددة من السفن لفترة وجيزة، ثم تترك نهائيا

وتتلف فيما بعد، فيتم صنع نوع آخر أحسن منها. زيادة على ذلك إن البحرية الهولندية كانت متكونة من عدة فروع، منها من كان رسميا ومنها من كان دون ذلك، كالبحرية الخاصة.

- بحرية خاصة وبحرية الدولة:

لم يكن الأسطول الهولندي، حتى نهاية القرن السادس عشر، يتكون بصفة حقيقية، من بحرية وطنية، فقد تكونت القوافل الأولى متنافرة في الحرب ضد أسبانيا، التي تم جمعها بالسفن الخاصة ذلك بأمر من سلطة البلدية.

وبعد ذلك، بمرور فترة قصيرة، تم تأسيس الشركات الكبرى من جهة، وقيادة البحرية من جهة أخرى، غير أنه لم يقع أي تمييز بين البحرية التجارية والبحرية الحربية طول فترة القرن السابع عشر.

والفوائد المحصل عليها مرتبطة ومتناسقة بين البحريتين، والأفراد المسيرون تربطهم علاقة متينة ودائمة بينهم، والأدوات المستعملة كانت معظمها متشابهة، والأدوات الموزعة على الأفراد هي مماثلة كذلك [10].

كانت البحرية الهولندية، دائما وأبدا، محل إعتناء الدولة: سواء كانت بحرية تجارية أو عسكرية فهي تعتبر الأداة الأولى للإزدهار وتطور البلاد، لكن الميدان التجاري كان أبرزها بما أنه كان يخدم الإقتصاد مباشرة. وما أن اهتدءت الأوضاع دوليا، من فترة لأخرى، خفضت هولندا من ديونها البحرية المنجرة عن الحروب.

تأسست قيادة البحر في بداية القرن السابع عشر، كان يترأسها ستاتودار (stathouder) بصفته الأميرال العام. تضم قيادة البحر خمس مؤسسات متكونة من مندوبين يمثلون مقاطعات منها: امستردام، روتردام، ميدابورغ[11].

تقوم قيادة البحر، وهي أداة مركزية، بمهام مختلفة: ادارة السفن، تجنيد الأفراد، اختيار قيادة الأركان، ممارسة حق العدالة على الجرائم البحرية... تحتوي إدارة القيادة على صندوق مالي مغذى بواسطة الحقوق الجمروكية، وعندما لا تكفي هذه الأموال لتغطية حاجيات البحرية، يلجؤ حكام المقاطعات إلى جمع الضرائب الخاصة (غير العادية).

رغم حرية قيادة البحر في ازدواجية مهامها، خرجت الإدارة العامة البحرية العسكرية من سلطتها إذ بقيت كل مؤسسة تدير شؤونها الخاصة غير معتمدة على المعاملة مع المؤسسات الأخرى.

تستأجر قيادة البحر كذلك السفن التي يحتاجها الأسطول التجاري، ومنذ بداية القرن السبع عشر اشترت هولندا عددا معينا منها، لكن سرعان ما اضطرت إلى بناء سفنها عند اندلاع الحرب الانجليزية سنة 1650. كانت هولندا تنفق أموالا كبيرة على هذه السفن والموظفين العاملين بها من المجاذفين والمراقبين، وجامعي الضرائب والمكلفين بإدارة الأجهزة.

رغم توسيع مهمة قيادة البحر، إلا ان الحكومة كلفت، أثناء التوسيع الهولندي، الأميرالات والضباط بإدارة شؤون المستعمرات ماوراء البحار، حقيقة كان تجنيد البحارة في أسواق العمل سهلا، ولكن اختيار الضباط، عكس ذلك، يأخذ اعتبارات المهنية والشخصية والميزة التي يتحلى بها الضابط في عمله البحري.

ومن جهة أخرى تنفذا للأوامر وحفاظا على النظام فإنّ الأساطيل التي يديرها الخواص والموجهة الى التجارة والصيد، تمرحتما على الادارة المركزية، فكان مجهز السفينة وقائد الصيد يموّل عائلته بالمواد الغذائية أثناء غيابه حتى لا تبقى عائلته عالة على الحكومة.

أما قضية التجنيد فإنّ المؤسسة البحرية تكلف أحد المجندين للقيام بمهمة تجنيد الأفراد: تعطيه مبلغا معينا من المال حوالي مائة وخمسين فلوران

(Florins) على كل فرد يتم تجنيده، فكان صاحب المهمة، وان اضطرته الأمور الى صرف هذه الأموال، يقوم بتجنيد أفراد بغيرقيمتهم الحقيقية، ما يترتب عنه تضاربا في قيمة تجنيد الفرد[12].

والجدير بالذكر أن هؤلاء الأفراد المجندين والمكونين لطاقم السفن الهولندية قد اختلفت أجناسهم وأصولهم وحتى اعتقاداتهم،لكن عملهم بقي مشتركا دون التمييز لهذه الأنتماءات. ولم يقتصر الأمر على البحارة الهولنديين فقط ،فقد كانت كل تشكيلات الجيش بجميع أصنافه وتخصصاته تتكون من أجناس مختلفة وهذه الظاهرة قد تنطبق تقريبا على كل الدول. والسبب بالنسبة لهولندا قد يعود إلى الرخاء الذي ميزها بعد أن حققت إستقلالها عن إسبانيا 1581، مما أدى إلى إنتقال نحواها أعداد معتبرة من الأوروبيين الذين كانت تهددهم الحروب، وتدهور الحالة الإجتماعية نتيجة لذلك وقد يكون السبب غير ذلك بالنسبة للدول الأخرى، مثل الجزائر التي كان جيشها يتكون خاصة من الأسرى من جنسيات مختلفة...

- دخول هولندا البحر المتوسط:

كان دخول انجلترا البحر المتوسط مرتبطا بالتجارة الخارجية خاصة منها، تجارة القصدير والأواني القصديرية أما هولندا ولأوّل مرة تغامر بدخولها البحر المتوسط بصفة مكثفة، من أجل شراء القمح من مناطق البحر المتوسط، ولم تدخل أبدا من أجل السياسة غير الناجعة التي اتبعتها اسبانيا في البحر المتوسط ،رغم أن لها جانب من المسؤلية في هذا الشأن، لأن الصراع بين الدولتين بقي لمدة طويلة، ومن بين أسبابه الصراع لكسب ممر في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

ظهرالانتاج الايطالي من القمح رديئا بين سنوات 1586- 1950، لذلك سارعت هولندا الى التعامل مع دول البحر المتوسط بمساعدة وسطاء يهود للحصول على هذه المادة الغذائية، ولما ازدادت حركة الهولندية في المنطقة ،فيما

بعد، يقول بعض المؤرخين بعض المؤرخين أنه في سنة 1591 سقطت ثلاث عشر مركبا هولنديا في الممر قرب اسبانيا، رغم أنها كانت تحمل رخصة المرور الموافق عليها من طرف الملك الكاتوليكي، ووصلت الى الميناء أربعون سفينة (ميناء ليفورنو)، من بينها سفن هولندا وانجلترا[13]. مع ذلك استطاعت هولندا، رويدا رويدا وبطريقة ذكيّة أن تقوم بدور فعّال في البحر المتوسط، اذ أنها تمكنت في سنة 1615 من تحويل بعض المنتوجات الألمانية نحو سوريا، مثل العنبر، الزئبق، الزنجفر أو الأحمر الزاهي كبريتور الزئبق (cinabre).

ومهما يكن من أمر، فان هولندا قد حققت نجاحا كبيرا في البحر المتوسط، حيث أنها وصلت سنة1597 الى أقصى الحوض الشرقي للبحر، وفي السنةالموالية تمكنت جميع السفن الهولندية من الوصول الى الموانئ التركية، وذلك بتصريح من الملك الهندى الرابع، الذى سمح لها بالتجول في البحر المتوسط تحت راية أسطوله، ولكنها لم تتمكن من الحصول على امتيازات الا في سنة 1612. اذن هكذا دخلت هولندا المياه الداخلية بسهولة حتى وأن اتصف هذا الدخول بثقل حراكته وعنفه. فهل أن الهولنديين كانوا أكثر البحارة قوة حسب رأي البرتغاليين ؟ أم أن البحر المتوسط والمحيط ألزمهما على لعب دورهم من أجل آخذ نصيب منهما، أو على الأقل ما بقي مما أخذ من طرف الدول الأوروبية الأخرى[14].

- بداية العلاقات الجزائرية – الهولندية :

عند النظر الى العلاقة بين الجزائر وهولندا نجدها لا تختلف كثيرا عن علاقة الجزائر بالدول الأوروبية الأخرى، فقد كانت مسيحية متشبعة بتعاليم الدين منذ العصور الوسطى في أوروبا لما كانت الكنيسة الكاثوليكية في روما تسيطر على الحياة الدينية وسياسية معا. وقد أظهر الأوروبيون عداءهم للإسلام والمسلمين، ورفعوا لواء الحروب الصليبية المقدسة (les croisades) ضد المسلمين، آخرها وقع في الأندلس سنة 1492، عندما سقطت الدولة الإسلامية في إسبانيا،

حسب رأي بعض المؤرخين، والبعض الآخر منهم يرى أنّ هذه الحروب إستمرت ضد دول شمال إفريقيا، لما تكالبت الدول الأوروبية على الجزائر خاصة مثل إسبانيا وفرنسا وإنجلترا... وبالتالي فالتعامل معها يبقى متميزا بالحذر. وهولندا كغيرها من الدول الأوروبية، قد تتحول من صديق الى عدو حسب الظروف وحسب الأزمنة. وبالتالي، اذا أخذنا مثالا عن انجلترا، نجد أن تحولها في العلاقات قد لوحظ في كل من الجزائر وتونس، مع ذلك فان البحارة الأنجليز كانوا ما يزالون محل ترحيب في الموانئ الجزائرية والتونسية. حيث كانوا هم ونظراؤهم الهولنديون يعلّمون الرياس المسلمين كيفية بناء وتقنية سير السفن الطويلة التى تعتمد في سيرها على الرياح وإتجهاتها، وكذلك أوقات هبوبها[15].

قد كانت الدول الشمالية (بريطانيا. السويد- الدنمارك- هولندا)، لا ترسل بكثير من السفن الى البحر المتوسط قبل نهاية القرن السادس عشر، بالرغم من أن أولئك البحارة الهولنديون الذين اجتازوا مضيق جبل طارق كانوا في الغالب موضع ترحيب في مونىء شمال افريقيا كحلفاء ضد ملك اسبانيا. ولكن هؤلاء البحارة الذين يطلق عليهم اسم شحاذة البحر كانوا في معظم الأوقات محملين برسائل من أمير أورنج (Orange)، أو من البرلمان وكانوا يخترون محطات في خطوط المحيط الأطلسي محاولة منهم تجنب المرور أمام إسبانيا والبرتغال.

وعندما بعث التجار الهولنديون سفنهم للتجارة مع العالم الواسع كانت أهدافهم الأولى أمريكا الجنوبية والشرق[16] وليس البحر المتوسط. لذلك فان أولى الرجال الهولنديين الذين عملوا في البحر المتوسط كانوا أناسا بين بحارة السفن الخاصة والقراصنة، على أنهم كانوا يفترسون بدون تمييز، تجارة ملك اسبانيا وجمهورية البندقية. وكثيرا منهم أصبحوا أعلاجا عاملين من خارج تونس أو الجزائر، وكانوا هم والانجليز وبعض ضباط البحر االفرنسيين قد علموا الجزائريين والتونسيين طريقة إبحار السفن التي يمكنها اختراق المحيط الأطلسي.

ومن ثمة توسع مجال أنشطة البحارة (المغاربة) بصفة كبيرة ولم يظهر البحارة الهولنديون بعدد معتبر في البحر المتوسط، الا في بداية القرن 17 وخصوصا بعد توقيع معاهدة "هدنة الإثني عشر" سنة 1609 بين اسبانيا والأراضي المنخفظة، وعندئذ أصبحوا فريسة لبحارة شمال افريقيا.

هكذا نرى أن بعض الدول الأوروبية مثل انجلترا، فرنسا وهولندا لم تكن تجد صعوبة في التعامل مع البحارة العاملين في إيالات شمال إفريقيا، ما دامت هذه الدول أيضا في حرب أو في عداء مع الممالك الإسبانية، ولكن عندما وقعت هذه الدول الثلاث، السلام مع العدو فإن بحارة شمال إفريقيا توقفوا عن النظر إليها كحلفاء، وسرعان ما استولوا على السفن التجارية التي تعود الى أصدقائهم السابقين.

لقد ظل الهولنديون والأنجليز والبنادقة والجنويون وفرسان مالطا، طول القرن السابع عشر يشنون حروبا على الجزائر ولكنها دحرتهم جميعا بفضل تفوق بحريتها المنظمة تنظيما محكما[17].

لم يصبح الهولنديون متدخلين بعمق في تجارة البحر المتوسط إلا في السنوات الأولى من القرن 17، ولذلك لم يكتشفوا الصعوبات التي يضعها ويسببها بحارة شمال إفريقيا إلا بعد الفرنسيين والإنجليز وكانوا يغطون المنطقة الواقعة بين القنال الانجليز (بحر المانش)، والجهات المحاذية لأوروبا سواء من جهة العالم الجديد أو افريقيا، وأخيرا أبحروا سفنهم حول افريقيا الى الهند وما وراءها محلول السنوات الأولى من القرن 17 كان التجار وأصحاب البنوك، الهولنديون قد أقاموا في عالم التجارة والاقتصاد نظاما واسعا متشابكا جعل من مدينة آمستردام مركزا لكل تجارة أوروبا. إذا أخذنا بعين اللإعتبارهذه الأمبراطورية الواسعة (هولندا) فإنه ليس من الغريب أن يظهر الهولنديون في حوض البحر المتوسط طالما سمحت لهم قوتهم العسكرية بإجتياز مضيق جبل

طارق لمهاجمة عدوهم، اسبانيا من الخلف وكان أولئك البحارة الهولنديون الأوائل، مثلهم مثل البحارة الانجليز، من النوع الخاص الذي غالبا ما وجد من السهل عليه أن يصبح من القراصنة وقد عانت سفن فرنسا والبندقية، كما عانت اسبانيا من هؤلاء الغزات الذين كانت سفنهم جوانبها علية ومرتفعة. وكان كثير من هؤلاء الهولنديين المغامرين قد اكتشفوا أنه بإمكانهم أن يعملوا من موانئ شمال افريقيا بالتعاون مع البحارة المسلمين.

لكن الجزائر عادة ما كانت تتمسك بمبدئها المعادي لكل دولة مسيحية تثور في يوم ما على المسلمين، وبذلك لم يكن الفرنسيون فقط هم الذين هاجموا الجزائر بل جميع أمم أوروبا.

لقد شاركت عديد الدول الأوروبية منها إنجترا، إسبانيا، جمهوريات إيطاليا وكذلك هولندا، وكنوا يبررون ذلك بتخليص أوروبا من "وباء" القرصنة، كما أطلقوا على عائهم هذا "الكفاح"، لكن كفاحهم ظل دون فعالية تذكر خلال القرن السابع عشر الذي نحن بصدد الكتابة عنه[18].

جاءت كلمة وباء في كتاب مولود نايت بلقاسم، وهي مقتبسة عن قول أحد المؤرخين الألمان يوري سيميونون أظن أن الكلمة فيها مبالغة لا يمكن انتسابها إلى الجزائريين فقط، لأن عملية القرصنة في البحر لم تكن خاصة بالجزائر، وإلا كيف وجد جزائريون عبيدا يباعون في اسواق أوروبا مثل سوق ليفرنو... فهناك إتفاقية بين السلطان العثماني والحاكم العام الهولندي الذي أمرالقبطان توماس جريش (Thomas Guerritz)[19] بإعادة عبيد السفن الأتراك والمغاربة للجزائر ومدينة آسفي بالمغرب الأقصى، حيث شملت هذه الإتفاقية المبرمة سنة 1605م، مائة وثمانية وثلاثون عبدا. وقد تم تحريرهم من السفن الإسبانية بعد حصار مدينة سلازير (Sluys).

- اضطراب العلاقات الجزائرية – الهولندية :

جاء الهولنديون سنة 1609م وحاولواعبور مضيق جبل طارق ليشتروا ويبيعوا بدل محاربة عدوهم السابق اسبانيا . لكن بضاعتهو وسفنهم تعرضت للقرصنة من قبل البحارة الجزائريين الذين إستولوا على الغنائم والأشخاص وحوّل هؤلاء إلى عبيد بيعوا في اسواق الرقيق بتونس والجزائر وقد حاول حكام هولندا في البداية التوصل إلى السلطان العثماني من أجل إبرام معاهدة سلم مستعملين عملية تجنيد تجنيد بحارة من شمال افريقيا وإستمالتهم لتحقيق هذا الغرض.

ما إن حلت سنة 1612م، حتى تكنت هولندا من إبرام أوّل معاهدة الأستسلام، حيث منح السلطان العثماني رسميا لهولندا إمتياز التجارة والمرور عبر أراضيها، كما ضمنت المعاهدة لرجال السفن الهولندية عدم أسرهم من قبل بحارة من شمال افريقيا، طالما لم يلجأ هؤلاء الى أعمال القرصنة، كما نصت على أن يجد أهل شمال افريقيا ملجأ في الموانئ الهولندية وفرصة لشراء المؤن البحرية والحربية، نصت معاهدة على الخصوص، على منع بيع الهولنديين في اليونان أو أسيا الصغرى، وكون أنّ المعاهدة لم تشر الى شمال افريقيا يدل على أن الباب العالي قد اعترف بأن سلطته كانت أقل مركزية مما هو في المناطق القريبة من عاصمة السلطان[20].

لقد اعتبرت هذه المعاهدة ذات أهمية عظمى نظرا لما لحجم الوثيقة الذي وصل في بعض الاحيان إلى أربعة أمتار وطبيعة الزخرفة التي كتبت بها، مع العلم أن المعاهدة تبقى سارية المفعول خلال فترة حكم السلطان فقط.مع ذلك فأن هذه المعاهدة مع السلطان لم تمنع حصول خلافات بين هولندا والجزائر حول المصالح التجارية لكل جهة.

والملاحظة أن القوانين السارية المفعول أنذاك، لم تكن مضبوطة بشكل يضمن سلامة السفن والأشخاص، سواء لعدم إلتزام البعض أو تداخل المصالح، كأن تعمل دولة "ما" على حماية سفن ليست لها أو هي لدولة صديقة. وهذا ما

كان يرغبه الهولنديون بحجة التمسك بالقاعدة التي ترغم السفن المحايدة على حماية السلع والبضائع لأنها قد تكون موّجهة لدولة ليس لها دخل في الصراع. أما الجزائريون والإنجليز فقد أصروا على مصادرة البضائع المهربة التابعة لدول ليست لها معهدة سلم معها.

ولتعزيز المعاهدة الموقعة مع هولندا سنة 1612م، قام خليل باشا بإرسال رسالة إلى الأمير موريس أس سردارا (Maurice as Serdar) رئيس المقاطعات المتحدة لهولندا، يبلغ من خلالها أنّه عيّن عمر آغا سفيرا في هولندا، وهو يامل أن يستقبل أحسن إستقبال لضمان إستمرارية الصداقة ،كما أحضر السفير معه رسائل خاصة بحاكم الجزائر وتونس تحتوي أوامر لفك أسر كل عبيد وأسرى الحرب.

لم يعد الهولنديون "حلفاء" ضد عدو مشترك (اسبانيا)، بل أصبحوا يتطلعون الى المتاجرة مع الموانئ والمدن الاسبانية، واثر من ذلك عمل ضباط البحر الهولنديون على شحن البضائع الاسبانية وحمل المسافرين الاسبان من مرسى الى اخر ومن دولة لأخرى، ولم يجد قانون دولي معترف به يحل هذا المشكل، مع ذلك فإن الهولنديين كانوا دائما يصرون على عدم تسبب في الحرب وبالتلي قد يفقدون مصالحهم التجارية[21].

ومادامو مستعدون للتجارة مع العدو أو الصديق في أي وقت ،فإنهم كانوا يريدون أن يحميّ علمهم كل البضائع وكل المسافرين، حتى الأجانب منهم، في سفنهم هم.

كانت الملاحة مستحيلة بدون رخصة وكانت كل دولة سلطة على البحر، تسعى جاهدة لمعرفة الأصدقاء والأعداء والمحادين الذين تشق سفنهم البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي ولذا كان التنقل بدون رخصة المرور "جواز سفر" من أخطر المغامرات وأضرها[22].

لذلك نجد الرياس البحر الجزائريين قد أصروا على حقهم في مصادرة بضائع عدوهم (سواء كانت انجلترا، فرنسا، هولندا، اسبانيا...). واسترقاق رعياه حيث يوجدون مهما كانت السفن التي كانوا على متنها.

ولم يكن ذلك هو المشكل الوحيد، فالجزائريون لم يقبلوا عن رضى، الحضانة التي أعطتها معاهدة السلطان للسفن والبحارة الهولنديين. ذلك أن السفن الهولندية كانت هدفا مغريا، الا انها خلافا للسفن الانجليزية - هي سفن كبيرة محملة بأسلحة ثقيلة- كانت السفن الهولندية، في العادة صغيرة مسلحة تسليحا خفيفا مما يجعلها هدفا سهلا للرياس البحارة.

هكذا ورغم المعاهدة المذكورة (معاهدة سنة 1612م)، فقد استولى الجزائريون بين سنوات 1613م و1622م على أربعمائة وسبعة وأربعين (447) سفينة هولندية كغنائم. وبما أن هذه السفن كانت صغيرة الحجم ولا تشكل سوى نسبة ضئيلة من مجموع السفن التي تشق البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فهي خسارة للأسطول الهولندي، مما جعل التجار والبحارة في أمستردام (عاصمة هولندا) يضغطون على حكوماتهم لوضع حد لذلك.

حاولت هولندا إستدراك الموقف فأغارت مرارا على الجزائر، انتقاما منها كما تقول، لما عثّ الاسطول الجزائري فسادا في الأسطول الهولندي حتى في هولندا نفسها، ومنها نذكر غارة لا مبير فرهور(Lambert Verhoer) سنة 1622م.

وفيما بعد تجاوزالهولنديون السلطان العثماني، فعقدوا معاهدة مع الجزائر ولكن البحارة الجزائريين الذين كانوا غير مستعدين لتفويت فرصة الغنائم الضخمة استمروا في الاستيلاء على السفن الهولندية[23].

ولذلك ظهر سنة 1624م أسطول هولندي في البحر المتوسط واستولى على عدد من السفن الجزائرية، ثم راسا أمام الجزائرفي عرض البحر، وقد طالب قائده - أمير البحر لامبير- بإطلاق سراح جميع الرقيق الهولنديين واحترام

المعاهدة المتفق عليها، وهدّد بأنه في حال الرفض، سيشنق جميع من كان معه من الأسرى . لكن الأغا والديوان راوا في الأمر خديعة منه وعارضوا التهديد. فقام الأمير بتنفيذ تهديداته وشنق الأتراك الجزازائريين الاسرى ثم أبحر مبتعدا عن الساحل.

وفي هذه الأثناء قام أهل مدينة الجزائر بالإحتجاج بقوة حتى أن الحكومة بادرت الى اطلاق سراح الرقيق والسفن الهولندية، التي كانت ما تزال محتجزة وأعلنت عن استعدادها لعقد معاهدة جديدة في نفس السنة 1622م، إستجابة لمطالب السكان من جهة وخوفا على تفاقم الأوضاع من جهة ثانية.

- الهوامش:

(1)- stathouder : معناها ملازما بالغة الهولندية، وهو لقب يطلق مبدئيا على حكام المقاطعات في البلدان المنخفظة، وطبق فيما بعد على 7 مقاطعات متحدة في هولندا لما انفصلت عن إسبانيا وبعد اتحاد المقاطعات اصبحت الرتبة عامة في السلطة العسكرية. وتطور استعمال الكلمة الى أن أصبحت مطلقة وموروثة.

ZUMTHOR (Paul) la vie quotidienne en Hollande au temps de rembranat.
(2)- Librairie hqchette 1959- P. 281

(3)- Westphalie: معاهدة سلم أدت بإنتهاء حرب ثلاثين سنة، وهي حرب دينية سياسية (1618-1648) بدأت في ألمانيا ثم توسعت الى كل أوربا، كان سببها إنعدام العدل بين البروتستانت والكاتوليك.

(4)- Maurice de Nassau: أمير أورانج، حاكمل في هولندا وزيلاندا 1584- 1625، تولى العرش خلافا لأبيه سنة 1584. ظهر من بين الزعماء الكبار في الحرب، قام بعدة معارك ضد اسبانيا،وهو الذي أمضى هدنة 12سن مع اسبانيا (09 أفريل 1609)، التي حققت نهائيا استقلال هولندا، وفي سنة 1621 عاد الى الحرب. توفي وهو أعزب، وخلفه شقيقه فريدريك هونرى Frederic- Henri أنظر:
" Dictionnaire encyclopédique d'histoire par Michel Mourri "

(5)- Steven: ولد في برويج، كان استاذ الرياضيات لموريس دوناصو، ومهندسا بارعا في هولندا، نسب له اختراع ثقل الهواء pesanter de l'air .

(6)- Breda: مدينة هولندية أسست بها أكاديمية عسكرية تدرس فيها اللغة الماليزية Malais، تم حصر وأخذ المدينة من طرف الاسبان سنة 1581، أرجعت هولندا المدينة بعد إمضاء صلح وستفالي، عقدت بالمدينة عدة مؤتمرات منها، مؤتمر الصلح بين هولندا وانجلترا سنة 1664، أنظر بالنسبة للكلمتين الاخيرتين...

Dictionnaire Générale de Biographie, par DEZOBRY (CH).

(7)- طنه tonneaux: وهو مقياس دولي لسعة السفن يساوى 2,83 متر مكعب.

(8)- Flùte: عتادية ذات كوائل دائري (آخر السفينة) هي سفينة حربية تستعمل لنقل العتاد.

(9)- ZUMTHOR , op- cit p312

(10)- BRAUDEL (Fernand): la Mediterranée et le Monde Médeterranée à l' époque de PHILLIPE II T:I – Paris 1949- p. 567.
(11)- BRAUDEL , ibid.

(12)- ZUMTHOR : op- cit p.315- 316

(13)- BRAUDEL , ibid T.I P.P 569.
(14)- ibid.

(15)- وولف (جون) : الجزائر وأوروبا (1500- 1830) ترجمة أبو القاسم سعد الله الجزائر 1986 ص. 242

(16)- ترجمة كلمة شرق بالفرنسية Orient وكلمة مشرق Levant حسب ما جاء في كتاب وولف.

(17)- GARROT (Henri): Histoire générale de l'Algérie - Paris 1910 p.p 380- 384.

(18) - مولود قاسم نايت بلقاسم : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قيب سنة 1830، الطبعة الأولى، الجزء الأوّل، الجزائر 1985 ص.ص 114- 115.

(19)- الأرشيف الوطني الجزائري: ملتقى حول العلاقات الجزائرية الإسكندنافية وهولندا من القرن 16 إلى القرن 19 يومي 12و13 مارس 2013.

(20)- الأرشيف...: نفســـه

(21)- وولف: مرجع سابق ص.ص 260- 261.

(22)- بلحميسي (مولاي): "جواز سفـر" . مجلة الشرطة . العدد 32 ديسمبر 1986 ص 19.

(23)- نايت بلقاسم: مرجع سابق ،ص.ص 114- 118.